# تأملات في سورة العلق

دكتور حسن محمد باجودة
رئيس قسم الدراسات العليا العربية
جامعة الملك عبد العزيز
بمكة المكرمة

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

الصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . وبعد :

بعون من الله تعالى وتوفيق ، سبق لنا أن درسنا دراسة بيانية متأملة ، السور التالية على التوالى : يوسف ، مريم ، يس ، الإسراء ، الفرقان ، العاديات ، النازعات ، الحاقة . وكل هذه السور من المكى من القرآن . وقد تم بحمد الله تعالى طبع كل هذه الدراسات .

وها نحن أولاء ، نستعين الله تعالى على دراسة سورة الرعد المكية فى مجموعها على ما نعتقد ، دراسة بيانية متأملة . وقد حاولنا ، إزاء هذه الدراسة ، وكل دراسة سابقة أن نتأمل السورة الكريمة من الوجهة البيانية ، وأن نبين ، جهد الطاقة ، الروابط الظاهرة والخفية ، التى تربط بين موضوعاتها وآياتها وأجزاء الآية الواحدة . وأن نأخذ العبرة وما تسنى من دروس يمكن أن تستفاد . فالمعروف أن القرآن الكريم كتاب هداية أولا وأخيراً . وقد جاء فى سورة الإسراء قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما » .

وأقول بشأن هذه الدراسة المتأملة لسورة الرعد ، ما قلته بشأن كل الدراسات القرآنية السابقة ، إنى أشهد الله الذى لا إلـه إلا هو ، أنى لم أشأ لحظة من اللحظات ، أن أحمل حرفاً واحداً من القرآن الكريم ما لا يحتمل . ومن كانت له ، على هذه الدراسة ، وكل دراسة ، أية ملاحظة ، فلا يتردد فى إبدائها . فالحق أحق أن يتبع .

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل ، وأن يأخذ بأيدينا إلى أقوم سبيل ، وأن يعفو عما بدر منا من تقصير ، وألا يحرمنا من أجر ، إنه سميع مجيب « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » . « سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين » وصلى الله وسلم على سيدنا وحبيبنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله رب العالمين .

د. حسن محمد باجودة

رئيس قسم الدراسات العليا العربية

جامعة الملك عبد العزيز ـ مكة المكرمة

مكة المكرمة يوم الإثنين الموافق

الثالث من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٩٨ هـ

العاشر من شهر أبريل سنة ١٩٧٨ م

# توطئة

ثمة مجموعة من المسائل نود أن نضعها بين يدى دراستنا المتأملة لسورة الرعد .

١ ـ ثمة اختلاف بين العلماء ، بشأن هذه السورة الكريمة ، أهى مكية أم مدنية . وقديماً قيل :

فالرعد مختلف فيها متى نزلت وأكثر الناس قالوا الرعد كالقمر(١)

وسورة القمر مكية .

ويرجح لدينا أن سورة الرعد مكية ، على الأقل فى مجموعها ، لأن الموضوعات التى تعنى بها ، هى ذات الموضوعات التى يعنى بها المكى من القرآن . فالسورة الكريمة تعنى بأسس العقيدة ، وتصور موقف كفار مكة ، من الدعوة إلى صراط العزيز الحميد ، وتبين مصير المكذبين ، فى الآخرة وفى الدنيا ، وتعمل على تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم . ومن العلماء من ذهب قديماً وحديثاً إلى كون هذه السورة الكريمة مكية . كسعيد بن جبير(٢) والقرطبى(٣)، وسيد قطب(٤) . وهذه الحقيقة لا تمنع اشتمال السورة الكريمة ، على آيات مدنية . ونظن على سبيل المثال ، أن الآية الكريمة الحادية والأربعين ، التى تصور انتقاص أرض الكافرين لصالح المسلمين الذين تتسع حدودهم بانتشار الإسلام ، قد تأخر نزولها إلى ما بعد

---

(١) الإتقان : ١-١٢

(٢) تفسير الطبرى : ١٣ - ١١٩ .

(٣) تفسير القرطبى : ٣٥٦٥ .

(٤) فى ظلال القرآن : ص ٣٠٦٦ .

الهجرة ، فهى من المدنى من القرآن . قال تعالى : « أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب »

إن القرآن الكريم ، بعد نزوله كاملا على المصطفى صلى الله عليه وسلم عاد فى ذات الصورة التى سبق أن كان عليها فى السماوات العلى . ونحن البشر ، إنما نعنى بمعرفة المكى والمدنى . لأن للزمن عندنا شأناً كبيرا . فإذا كان القرآن الكريم قد نزل منجماً ، مراعاة للظروف ومقتضيات الأحوال ، فإن طبيعة المجتمع الإسلامى ، المتجه أثناء نزول القرآن الكريم ، من الضعف إلى القوة ، إحدى تلك الظروف والأحوال ، التى روعيت بوضوح بشأن التشريع ، الذى كان ارتباطه أكثر بالفترة المدنية .

وبما أن سورة الرعد لم تتضمن شيئاً فى الجانب التشريعى ، يكون نزول الآيات التى يظن أنها مدنية ، قد تأخر مراعاة لطبيعة الدور الذى قامت به آنذاك ، هذه الجماعة أو تلك . والمعروف أن ترتيب آى السور الكريمة توقيفى . وأن ترتيب سور القرآن الكريم توقيفى كذلك ، بمعنى أن دور المصطفى صلى الله عليه وسلم بشأن ترتيب الآيات والسور يقتصر على أمر كتاب الوحى بوضع ما أوحى إليه من القرآن الكريم ، فى الموضع الذى عينه جبريل عليه السلام . وعلى هذا الأساس تكون الكتابة بعد ذلك والتلاوة والحفظ .

وحينما يريد خصوم هذا الدين أن يعيدوا ترتيب القرآن الكريم ، وفق تأريخ النزول ، يبدو واضحاً أنهم يريدون بالقرآن الكريم ما عمله ويعمله الآخرون بالكتب السماوية السابقة من تحريف وتبديل . علماً بأن القرآن الكريم ، هو الكتاب السماوى الوحيد ، الذى تكفل رب العزة بحفظه . قال عز من قائل : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] . فعلينا أن نحذر عبث هؤلاء العابثين . وعلى كل واحد أن يعلم بأن ترتيب سور القرآن

---

(١) الحجر : ٩ .

الكريم وآيه توقيفى ، فلا دخل للبشر ، وفيهم المصطفى صلى الله عليه وسلم فى حرف واحد منه ، لا من حيث المضمون ولا من حيث الشكل .

فإذا عرفنا أن من المترجمين لمعانى القرآن الكريم ، من غير ترتيب سور القرآن ، ظنا منه ، إن كان حسن الطوية ، أنه بهذا العمل يجمع فى نسق بين السور التى يرى أنها ذوات موضوعات متجانسة ، عرفنا أن هذا المترجم ، بجهل أو يتجاهل ، أنه بهذا التصرف قد أبطل ما فعله المصطفى صلى الله عليه وسلم ، بإيحاء من ربه .

إن هذه الأعمال غير المشروعة ، ليست سوى مقدمات لشرور مستطيرة ، يريد خصوم هذا الدين — خيب الله تعالى مساعيهم وجهودهم — أن يلحقوها بهذا الدين الذى رضيه الله تعالى لعباده . إن هؤلاء يصرحون بأنهم يريدون أن يعيدوا ترتيب القرآن الكريم ، وفقاً لتاريخ النزول ، أو بعبارة أصح وفقاً لتاريخ الظهور ، لأن المستشرقين فى مجموعهم يرون أن القرآن الكريم من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً »(١) والمعروف أن من سور القرآن الكريم ما يفصل بين نزول بعض أجزائها وبعض ، فترات تطول أو تقصر ، وينزل فى تلك الأثناء سورة أخرى أو أجزاء من سور أخرى . والمعروف أنه ينزل من السورة التى نزلت منجمة مجموعة من الآيات تكثر أحياناً وتقل أحياناً أخرى فى هيئة الثلاث الآيات مثلا أو الآيتين أو الآية الواحدة أو الجزء من الآية ، كقوله تعالى : « غير أولى الضرر »(٢) من الآية الكريمة الخامسة والتسعين من سورة النساء . قال تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » أين يريد هؤلاء الخصوم أن يضعوا

---

(١) الكهف : ٥ .

(٢) انظر صحيح البخارى : ٦ — ٦٠ .

« غير أولى الضرر » وقد أوحى الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بموضعه فى هذه الآية الكريمة من سورة النساء ؟

٢ — من أهم خصائص هذه السورة الكريمة أسلوبياً ، أنها تجنح بوضوح للجمع فى السياق ، بين الصفات المتقابلة ، أو المعانى التى يجمع بينها فى الحس التضاد . كالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار . الأرض الممدودة والجبال الرواسى . الجبال الرواسى والأنهار الجارية . الثمرات التى لكل زوجان اثنان . قطع الأرض المتجاورة والمتباعدة ، المختلفة فى الطبيعة من خصبة وسبخة . الأعناب المعروشة والزروع غير المعروشة . النخيل الصنوان ، وهو الذى له أصل واحد وجذوع مختلفة ، وغير الصنوان ، وهو الذى تستقل فيه كل نخلة بأصلها وجذعها . التفاوت فى الطعم بين الثمرة والأخرى . وغير ذلك فى السورة كثير .

وإن لهذه الخاصية الأسلوبية دورها فى رجحان بعض المعانى ، كما هو الحال بشأن غيض الأرحام وازديادها ، فى قوله تعالى فى الآية الثامنة من السورة الكريمة : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » . فقد رجحنا أن الزيادة يراد بها الزيادة على التسعة الأشهر ، وهى مدة الحمل المعتادة ، لأن الغيض يعنى النقص . وكما هو الحال بشأن المراد بالحُكْم ، فى قوله تعالى فى الآية السابعة والثلاثين : « وكذلك أنزلناه حكماً عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق » . إن اشتمال الآية الكريمة على الأهواء ، جعلنا نميل إلى ترجيح الرأى القائل بأن المراد بالحكم العربى القرآن المحكم ، من الإحكام ( بكسر الهمز ) بسبب كون العروبة ، صفة لكل آى الذكر الحكيم ، ويدخل فيها آيات الأحكام ( بفتح الهمز ) .

٣ — حاولنا جهد الطاقة ، فى دراستنا البيانية ، لهذه السورة الكريمة ، تبيين العلاقات الواضحة والخفية ، بين موضوعات السورة الكريمة ، وآيات القسم ، وأجزاء الآية الواحدة . إن لكل سورة من سور القرآن الكريم وحدتها الموضوعية . ولها طريقها الخاصة بها فى ربطها بين كليات

المعانى وجزئياتها . لقد وضعنا نصب أعيننا دائماً الهدف الأهم للقرآن الكريم ، وهو الهداية للطريقة التى هى أقوم .

٤ ـ أمكن تقسيم السورة الكريمة ، حسب الموضوعات المتجانسة التى تعالجها إلى الأقسام العشرة الآتيـــة :

القسم الأول : ويتكون من الآية الكريمة الأولى فى السورة .

القسم الثانى : ويتكون من ثلاث آيات ( ٢ـــ٤ ) .

القسم الثالث : ويتكون من ثلاث آيات ( ٥ـــ٧ ) .

القسم الرابع : ويتكون من تسع آيات ( ٨ـــ١٦ ) .

القسم الخامس : ويتكون من آية واحدة (١٧) .

القسم السادس : ويتكون من ثمانى آيات ( ١٨ـــ٢٥ )

القسم السابع : ويتكون من أربع آيات ( ٢٦ـــ٢٩ )

القسم الثامن : ويتكون من ثلاث آيات ( ٣٠ـــ٣٢ )

القسم التاسع : ويتكون من ثلاث آيات ( ٣٣ـــ٣٥ )

القسم العاشر : ويتكون من ثمانى آيات ( ٣٦ـــ٤٣ )

ونعمد الآن ، مستعينين بالله تعالى ، دائماً وأبداً ، إلى دراسة السورة الكريمة دراسة بيانية ، فإلى :

# الدراسة المتأملة لسورة الرعد

# القسم الأول

القرآن الكريم منزل من الله تعالى

الآية رقم (١)

قال تعالى : « **الر ، تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** » .

نحب بشأن هذه الآية الكريمة الأولى فى السورة ، أن نبين ابتداء أنها تشير إلى موضوعات السورة الكريمة وقضاياها ، وتوحى بالطابع المميز لطريقتها فى العرض . أما الموضوعات والقضايا ، فإنها تفهم من الإشارة إلى القرآن الكريم ، وإلى كونه الحق الذى أنزل إلى الرسول الكريم من ربه ، بواسطة جبريل عليه السلام رسول السماء إلى رسول الأرض ، وإلى انقسام الناس فى تلك الأثناء تجاه القرآن الكريم فريقين ، مؤمنين وهم قلة، وكافرين وهم أكثرية . وإن لفظة ( رب ) التى تستعمل فى جو المحبة والحنان ، تعنى أن تسلية الرسول الكريم ، وتثبيت فؤاده لهما فى السورة الكريمة مكان . وأما الطابع المميز لطريقة السورة الكريمة فى عرض الموضوعات والقضايا ، فإنه يفهم من الإشارة فى الآية الكريمة بكلمة « أنزل » إلى السماء مصدر القرآن الكريم والأرض مهبطه . وإلى المؤمنين وغير المؤمنين . إن الجمع فى نسق بين الصفات المتقابلة ، هو أهم ما يميز هذه السورة الكريمة . والآن نمضى إلى دراسة الآية الكريمة دراسة متأملة .

اختلفت آراء العلماء حول معنى هذا المطلع « الر » ومنهم من توقف عن الإدلاء بأى رأى اجتهادى قائلا : الله أعلم بمراده به . ومن أصلح الآراء فى هذا الشأن ، كون هذا المطلع وأمثاله ، امتداداً للتحدى بالقرآن الكريم ، إذ فيه التنبيه إلى أن القرآن الكريم المعجز ، يشتمل على ذات الحروف التى يعرفون ، ويتضمنها كلامهم المنثور والمنظوم . فإذا كان العرب على عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهم من هم فصاحة وبيانا ، قد عجزوا عن الإتيان بمثل سورة واحدة من سور القرآن الكريم القصار ، فضلا

عما وراء ذلك ، فمن باب أولى سواهم الذين يتأخرون عنهم فى مجال الفصاحة درجات . وكأن هذا المطلع — خاصة أنه تبين أخيراً بصورة أوضح ، أن حروف المطلع ، أو حرفه ، تجيء فى أثناء السورة أكثر مما تجيء سواها — يوجه انتباه البشر ، إلى كون معجم هذا القرآن المعجز ، من جنس معجمهم اللغوى ، فعليهم أن يسألوا عن السر فى إعجازه ويطمئنوا إلى كونه تنزيل العزيز الرحيم .

وعلى الرغم من المحاولات المخلصة ، لمعرفة معنى هذه المطالع ، فإن لدى العلماء إحساساً عميقاً بأن المعنى بعيد المنال . وكأن مثل هذا الإحساس مهيئ بعد ذلك مباشرة ، لاسم الإشارة الدال على البعد « تلك » والمنبه إلى المنزلة العالية الرفيعة لآيات القرآن الكريم ، تلك المنزلة التى ينبغى أن تكون طابع آيات الكتاب كله فى نفوس عباد الله تعالى . وقد تضمن بُعْدُ المكان فى اسم الإشارة ارتفاع مكان القرآن الكريم .

إن القول : « تلك آيات الكتاب » ، يعنى أن رفيع المنزلة سمة كل آيات الكتاب العزيز . وكيف لا يكون الأمر كذلك ، وإن هذا الكتاب العزيز ، كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم . بلسان عربى مبين . وإلى نزول القرآن الكريم ، أشارت الآية الكريمة :« والذى أنزل إليك من ربك الحق » إن هذا الكتاب له تلك المنزلة الرفيعة ، لأنه كلام رب العالمين ، فهو بالحق قد أنزله الله تعالى ، لأن الحق هدفه وغايته ، وهو بالحق نزل ، لأن الحق ملازم لكل جزئية من جزئياته . إن المؤمنين ، وكانوا أول الأمر فئة قليلة ، موقنون بكل هذه الحقائق ، أما أكثر الناس وهم الكافرون ، فإنهم مكذبون للرسول الكريم ، منكرون أن يكون القرآن الكريم كلام رب العالمين ، وبالتالى هم رافضون لكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم من ربه . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » .

إن الإشارة إلى عدم الإيمان معناها أن الناس انقسموا تجاه القرآن الكريم فريقين ، مؤمنين وكافرين . وحينما لا يصدق الكافرون أن مصدر القرآن

الكريم السماوات العلى وأنه كلام رب العالمين ، يظنون إذن أن مصدر القرآن الكريم قوى خارجية غير خيرة . وما يصدر عن غير الخير فى اعتقادهم غير خير وغير حق ، أى كذب . ولما كانوا مضطربين فكرياً وغير منصفين ، فقد ضلت بهم السبل . وحينما راعهم من القرآن الكريم سمو معناه ، وجلال مبناه ، وجمال جرسه ، وكمال فواصله ، اتهموا الرسول الكريم مرة بأنه شاعر ، ظناً منهم أن القرآن الكريم ضرب من الشعر الذى توحى به شياطين الشعراء حسب تصورهم ، ومرة أخرى بأنه كاهن ، ظناً منهم أن القرآن الكريم ضرب من سجع الكهان الذين يرجمون بالغيب متكهنين بالمستقبل . وكذلك اتهموه صلى الله عليه وسلم بأن ما جاء به أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، وربما تجاوزوا الاتهام بالكذب إلى الاتهام بالجنون . أما حين أرادوا أن يعللوا استجابة الناس للقرآن الكريم وللرسول العظيم ، لم يجدوا هناك صفة تزاحم صفة السحر ، فبسبب قدرة القرآن الكريم والرسول العظيم ، على أن يحدث فى كل نفس إنسانية صافية طاهرة نقية أبلغ الآثار لم يتورع كفار مكة عن الزعم بأن الرسول الكريم — كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا — ساحر ، وبأن القرآن الكريم ضرب من السحر . إن كفار مكة على علم بأن السحر تعامل مع قوى خفية شريرة وهم لا يتورعون عن اتهام الرسول الكريم بكل ذلك .

وقد كان ولا شك للفظ الرب فى قوله تعالى : « **والذى أنزل إليك من ربك الحق** » أبلغ الآثار الحسنة فى نفس المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لأن هذا اللفظ الذى يرتبط به جليل العناية وجميل الرعاية ، إنما يستعمل عادة حينما يكون الجو عابقاً بشذا المحبة والحنان ، وما أشد حاجة المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى كل ذلك ، وهو الذى يبالغ قومه فى تكذيبه ومحاولة النيل منه . كما كان لجملة « يؤمنون » فى قوله تعالى : « **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** » دلالة كبيرة على أن المراد لهؤلاء الكافرين أن يكونوا أكثر الناس إيمانا ، ومع ذلك هم يصرون على الكفر والعصيان .

إن القرآن الكريم حينما ينزله رب العزة من السماوات العلى على خاتم

الأنبياء والمرسلين ، كى يخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد يكون معنى هذا أن نور السماء قد شمل الأرض ، وأن العلاقة وثيقة بين السماء التى نزل منها القرآن الكريم ، وبين الأرض التى يمشى فيها البشر مطمئنين ، وهم الذين أنزل من أجلهم القرآن الكريم . إن هذه العلاقة الوثيقة بين السماء والأرض ، والإشارة إلى المؤمنين وغير المؤمنين ، لها دورهما فى صبغ أجزاء السورة الكريمة بصبغتهما ، فنحن نتبين دائماً وأبداً هذا الجمع بين الصفات المتقابلة ، بحيث إنا نستطيع أن نقول : إن الطابع المميز لهذه السورة الكريمة هو أنها تجمع فى نسق بين عدد من الصفات المتقابلة . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك القسم التالى مباشرة ، الذى يتحدث عن السماء والأرض منبها إلى بعض أنواع الصلات بينهما . ومعروف أن القرآن الكريم أوضح أنواع الصلات بين السماء والأرض وأبلغها . فإلى القسم الثـــانى .

# القسم الثاني

رفع الله تعالى السماوات وفيها الشمس والقمر،
ومد الأرض وهيأها للزراع
الآيات (٢-٤)

قال تعالى : « الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

أشارت الآية السابقة التى يتكون منها القسم الأول إلى المكان العالى الرفيع للقرآن الكريم فى السماوات العلى ، وإلى مكانته العالية الرفيعة فى قلوب المؤمنين ، وإن كان أكثر الناس لا يؤمنون بذلك . وكأن الآية الكريمة أشارت إلى شيئين غاية فى الأهمية . الأول مكان القرآن الكريم العالى فى السماء ومكانته العالية فى الأرض . والثانى انقسام الناس تجاه القرآن الكريم فريقين ، مؤمنين وكافرين . إن هذين الشيئين المهمين أوحيا بالصبغة التى تصبغ السورة الكريمة بلونها . إنها صبغة الصفات المتقابلة ، فهذا القسم الثانى مثلا يتحدث عن السماء وعن الأرض . اللتين جاءت الإشارة إليهما من قبل ضمنا ، واللتين يجمع بينهما فى الحس التضاد . ويتحدث عن بعض الكائنات السماوية والأرضية التى يجمع بينهما فى الحس التضاد أيضا ، كالشمس والقمر ، والليل والنهار . الأرض الممدودة والجبال الرواسى . الثمرات التى لكل زوجان اثنان، قطع الأرض المتجاورة والمتباعدة ، المختلفة فى الطبيعة من خصبة وسبخة . الأعناب المعروشة[1] والزروع غير

---

(١) القاموس « عرش » « والعريش كالهودج وما يعرش للكرم ، وخيمة من خشب وثمام ج عرش . وعرش يعرش ( بكسر الراء ) ويعرش ( بضمها ) بنى عريشاً كأعرش . . والكرم عرشاً وعروشاً رفع دواليه على الخشب كعرشه ( بتشديد الراء ) . . . واعترش العنب علا على العريش وفلان اتخذ عريشا » .

المعروشة(١) النخيل الصنوان وهو الذى له أصل واحد وجذوع متعددة ، وغير الصنوان ، وهو الذى تستقل كل نخلة فيه بأصلها وجذعها . التفاوت فى الطعوم بين الثمرة والأخرى . إن التضاد أو الأختلاف فى الصفات ، ليس مقصوراً على البشر ، إنما هو شامل للكثير من المخلوقات الأخرى ، على نحو ما يبدو بوضوح من آيات القسم الثانى مثلا . هذا إلى أننا « أمام ارتفاع فى الفضاء المنظور ، يقابله ارتفاع فى الغيب المجهول »(٢) .

وبعد هذا العرض السريع ، نحن بحاجة إلى وقفة أخرى أطول ، عند كل آية على حدة ، وكل جزئية منفردة ، فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : **« الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون »** .

إن ابتداء الآية الكريمة بلفظ الجلالة « الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها » معناه أن الله سبحانه وتعالى ، هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، لأنه عز وجل ، هو خالق السماوات ، وهو الذى يمسك بها أن تقع على الأرض إلا بإذنه . فالسماوات مرفوعة بيد القدرة الإلهية . فليس ثمة عمد ، ( بفتحتين أو ضمتين وقد قرىء بهما ) ترفعها(٣) إن هذه السماوات البعيدة المدى ، والتى يفصل بين الواحدة والأخرى مسافة خمسمائة عام ، والتى تشتمل من الأجرام السماوية ما لا يحصيه إلا الله تعالى ، معلقة فى الفضاء بإرادة الله تعالى . ونحن نرى هذه السماوات دون عمد . إنها فى العين كذلك . وهى فى الحقيقة كذلك . عن ابن عباس : ليست من

---

( ١ ) قاموس « زرع » « وأزرع الزرع طال » .

( ٢ ) فى ظلال القرآن ، ٢٠٤٥ .

( ٣ ) فى رأى ابن حيان فى البحر المحيط ٥-٣٥٧ أن العمد اسم جمع ومن أطلق عليه جمعاً فلكونه يفهم منه ما يفهم من الجمع وهى الأساطين ( جمع الأسطوانة التى يستعملها البشر لرفع السقف وإلا سقط ) . . والمفرد عماد وعمد ، كإهاب وأهب . وقيل عمود وعمد كأديم وأدم وقضيم وقضم . والعماد والعمود ما يعمد به .

دونها دعامة تدعمها ، ولا فوقها علاقة تمسكها(١) وقد كشف العلم الحديث عن هذه القدرة المبدعة التى رفعت السماوات والأرض كذلك ، دون عمد ظاهرة وباطنة . إن هذه القدرة مصدرها الجاذبية ، بمعنى أن يتساوى بقدرة الله تعالى الشد والجذب من جانبى الكوكب بواسطة كواكب أخرى ، فيظل الكوكب الثابت أو المتحرك معلقا . وتطرد هذه الظاهرة بشأن كل الأجرام السماوية التى لا يعلم تعدادها إلا الله تعالى ، موجدها من العدم ، ومقدرها تقديرا ، والمهيمن عليها كى تقوم خير قيام بالوظيفة التى نيطت بها ، إلى أن يقضى الله تعالى أمراً كان مفعولا .

والآية الكريمة ، بعد الحديث عن الأرتفاع فى الفضاء المنظور ، تتحدث عما يقابله من ارتفاع فى الغيب المجهول ، فتشير إلى استواء الله تعالى على العرش ، وهو فى اللغة سرير الملك(٢)استواء يليق بجلاله وعظمته ، من غير تكييف ولا تمثيل ، ولا تشبيه ولا تعطيل . سئل الإمام مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى(٣): « **الرحمن على العرش استوى** » فقالوا: الأستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك قال ربيعة شيخ مالك قبله : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومن الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا الإيمان(٤) .

وكما أشارت الآية الكريمة ، كان الاستواء بعد رفع السماوات . جاء فى سورة فصلت قوله تعالى: « **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها ، قالتا أتينا**

---

( ١ ) البحر المحيط : ٥ — ٣٦٠ .

( ٢ ) القاموس « عرش » .

( ٣ ) طـه : ٥ .

( ٤ ) ابن تيمية ، الرسالة التدمرية ص ٣٥ ، القاهرة ١٣٨٧ نشر قصى محب الدين الخطيب

طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم »(١) .

فبعد أن كان من الذات العلية استواء إلى السماء ، كان من الذات العلية استواء على العرش .

ومن متعلقات رفع السماوات بغير عمد نراها ، رفع الشمس والقمر ، وتسخيرهما ، وتذليلهما للغرض الذى وجدا من أجله ، بأن يجرى كل منهما فى خطه المرسوم الواضح المعالم إلى أجل مسمى ، يضطرب فيه خط السير لكل من الشمس والقمر وسائر الكواكب ، بإرادة مالك الملك ، الذى شاء أن يضع نهاية للحياة الأولى وبداية للحياة الأخرى ، وفى ذلك « فناء الدنيا وقيام الساعة التى عندها تكور الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم »(٢) . قال تعالى : « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » .

إن جملة « يجرى » أشارت إلى المكان الذى ينبغى أن تتم فيه عملية الجرى ، ويرتبط بالمكان الزمان بدلالة الالتزام . وإن القول : « لأجل مسمى » أشار إلى الزمان النهائى المقدر المضبوط الذى ستنتهى فيه ، بإرادة مالك الملك ، وظيفة الشمس والقمر وما إليهما . ولا يخفى أن هذا القول « لأجل مسمى » الذى يعنى يوم القيامة ، خير من مهيئ للقول بعد ذلك فى الآية الكريمة « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » مما يدل على أن البعث بعد الموت أحد الموضوعات التى أولتها السورة الكريمة عنايتها .

إن السماوات التى تتكون من كل ما علانا من أجرام مرفوعة ، بحاجة بعد خلقها على غير مثال سابق ، إلى تدبير أمرها كى تؤدى الهدف الذى خلقت من أجله ، وذلك على غرار تدبير كل من الشمس والقمر ، اللذين

---

(١) آيات : ٩ - ١٢ .

(٢) ابن كثير ٢ - ٤٩٩ . وقد أشار إلى أن عدد الكواكب السيارة سبعة ، وقد تبين أن العدد أكثر من ذلك . أنظر الفلسفة القرآنية ، عباس محمود العقاد ص ١٨٢ دار الهلال .

يجرى كل منهما لأجل مسمى ، واللذين اتخذا رمزين لما سواهما من كواكب سيارة وثوابت ، لأن الشمس والقمر أظهر الكواكب السيارة ، وهذه الكواكب السيارة أشرف وأعظم من الثوابت ، فإذا كان قد سخر هذه فلأن يدخل فى هذا التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى(١).

وبما أن كل ما فى السماوات والأرض قد ذلله الله تعالى من أجل الإنسان الذى خلقه فى أحسن تقويم وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا ، ينبغى أن يكون تدبير الأمر الذى أشار إليه قوله تعالى فى الآية : « يدبر الأمر » شاملا للسماوات والأرض وما فيهما . جاء فى سورة لقمان(٢)قوله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » . كما ينبغى أن يكون تفصيل الآيات الذى أشار إليه قوله تعالى فى الآية : « يفصل الآيات » يعنى هذا الإنسان الذى أسبغ عليه عز وجل نعمه ظاهرة وباطنة ، وفى مقدمتها العقل الذى يستطيع أن يتدبر آيات الله تعالى . وعلى رأس هذه الآيات القرآن الكريم ، كى ينتهى إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، الهدف الأكبر الذى من أجله خلق ، وإلى تصديق رسوله الكريم ، وقرآنه العظيم ، والإيمان باليوم الآخر ، والعمل من أجل ذلك اليوم المجموع له الناس المشهود .

ولا يخفى أن كل هذه المقدمات تسلمنا إلى تقرير الآية الكريمة فى نهايتها لليوم الآخر ، الذى يعتبر هدفاً من أهم أهداف هذه السورة الكريمة ، التى نعتقد أنها مكية فى مجموعها « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . والخطاب هنا يصح أن يوجه إلى كفار مكة أساساً ، وإلى كل الناس وراء ذلك ، الكافرين على وجه الخصوص ، وواضح أن المراد أن يصل إيمان الناس بيوم القيامة إلى درجة اليقين ، وليس وراء هذه الدرجة وراء . وحينما يكون

---

(١) المصدر السابق .

(٢) آية : ٢٠ .

إيمان الناس بهذا المستوى الرفيع ، فلن يصدر منهم ، بإذنه تعالى ، إلا مايسرهم يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

إن الآية الكريمة ، التى تناولت الزمان بصورة واضحة ، جمعت فى حديثها بين السماء والأرض ، وإن كان الحديث عن الأرض محدوداً ، وهى فى ذلك تسير على غرار أولى آيات السورة التى كان نصيب السماء فيها أكبر من نصيب الأرض . ونستطيع بشأن هذه الآية الكريمة أن نقول : إنها تؤدى ذات المفهوم الذى تؤديه هاتان الآيتان الكريمتان من سورة فصلت(١)قال تعالى : «**ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا . ذلك تقدير العزيز العليم** » .

وبعد أن نالت السماء حظها من الحديث ، و دخل الزمان فى ذلك ضمنا ، نالت الأرض حظها كذلك ، كما نستطيع أن نقول إن المكان قد نال حظه ، وذلك فى الآيتين الكريمتين التاليتين اللتين للسماء فيهما نصيب محدود . أما نصيب الأرض فإنه الأكبر . وذلك من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده ، لأن علاقة الإنسان بالأرض هى الأكبر ، ولأن علمه بها هو الأكثر . وحينما يكون للأرض نصيبها من لفت الأنتباه إلى الآيات المرتبطة بها ، فلأن المنتظر من الإنسان أن يكون أكثر قدرة على أخذ العبرة من هذه الآيات التى إليها ينبه .

والآن إلى أولى الآيتين الكريمتين . قال تعالى : « **وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » .

وثمة مجموعة من المسائل نود أن نضعها بين يدى تأملنا لهذه الآية الكريمة .

(١) إذا كانت الآية السابقة التى تتحدث عن السماء تؤدى ذات المفهوم الذى

---

(١) آية : ١٠ ، ١١ .

تؤديه الآيتان الكريمتان من سورة فصلت ، اللتان تشيران إلى أن جعل السماوات سبعاً ، وتزيين السماء الدنيا قد تم فى يومين اثنين ، فإن هذه الآية الكريمة يصح أن يقال عنها إنها تؤدى ذات المفهوم الذى تؤديه هاتان الآيتان الكريمتان السابقتان من سورة فصلت(١) قال تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين » . أى أن خلق الأرض تم فى يومين اثنين ، ليسا كأيام الدنيا بطبيعة الحال ، وأن إرساء الجبال وإنزال البركة على الأرض بشأن الزروع والضروع والمياه ، وتقدير الأقوات للمخلوقات تم فى يومين اثنين ، تمام أربعة أيام .

( ٢ ) حينما يكون من نصيب السماوات يومان ، ومن نصيب الأرض أربعة أيام ، ونعرف أن الله سبحانه وتعالى قد سخر كل ما فى السماوات وما فى الأرض من أجل الإنسان ، ولما كانت الأرض التى من نصيبها أربعة أيام ، هى موطن الإنسان ، منها خلق وفيها يعود ومنها يخرج تارة أخرى ، فإن واجب الإنسان أن يكبر هذه النعمة ، وأن يشكر لله تعالى عليها ، وأن يحمد لمالك الملك رأفته بالإنسان الذى كرمه بنعمة العقل كى يتدبر آيات الله تعالى .

وفى كل شىء له آية  تدل على أنه واحد(٢)

وكى يتدبر آيات الذكر الحكيم الذى يسره رب العزة للذكر وتكفل بحفظه إلى أن يرث عز وجل الأرض ومن عليها .

٣ – يفهم من آيات سورة فصلت أن الأرض خلقت ابتداء فى يومين ، وأن السماء خلقت بعد ذلك فى يومين . ويفهم من أمثال هذه الآيات من

---

( ١ ) آية : ٩ ، ١٠ .

( ٢ ) ابن كثير : ١–٢٤ .

سورة النازعات(١) : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم » أن دحو الأرض ، بمعنى بسطها ومدها ، وإخراج المـــاء متاعاً للإنسان ، والمرعى متاعاً للأنعام ، يفهم أن هذه العمليات قد تمت فى يومين اثنين ، وذلك بعد خلق السماوات فى يومين . وإن حديث سورة النازعات عن الأرض ، وحديث الآية الكريمة التى نحن بصددها من سورة الرعد ، يقابل هذه الآية الكريمة من سورة فصلت(٢) . قال تعالى : « وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين »(٣) .

٤ — إذا كانت الأيام الستة قد وزعت بالتساوى على هذه الأمور الثلاثة بالترتيب . خلق الأرض . خلق السماوات . تهيئة الأرض كى تكون صالحة لسكنى الإنسان يكون معنى ذلك أن حديث القسم الثانى من سورة الرعد عن السماء أولا وعن بعض مظاهر تهيئة الأرض لسكنى الإنسان بعد ذلك ، يساير الترتيب الطبيعى الذى تمت وفقه العمليتان .

٥ — إن ارتباط هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . باليومين الثالث والرابع اللذين ليس لها مقابل بشأن السماوات ، واللذين يرتبطان بعملية تهيئة الأرض لسكنى الإنسان ، يتطلب كل ذلك من الإنسان الذى أنعم الله تعالى عليه بنعمة العقل أن يتفكر فى هذه العمليات وأن يتدبر هذه النعم وأن يقدرها حق قدرها ، بتحقيق الهدف الذى من أجله استخلفه الله تعالى فى هذه الأرض ، بأن يعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، بمفهوم

---

(١) آيات : ٢٧ — ٣٣ .

(٢) آية : ١٠ .

(٣) انظر هنا تأملات فى سورة النازعات للمؤلف ص ٨٨ فما بعدها .

العبادة الواسع فى الإسلام إلى أبعد الدرجات ، بأن يقصد الإنسان بكل حركة وسكنة وجه ربه الأعلى . إن التفكر والتدبر تنبهنا إليهما الآية الكريمة ذاتها « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . فلنحاول التفكر والتدبر بتأمل الآية الكريمة . قال تعالى: « **وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » .

لقد ابتدأت الآية الكريمة فى ذات الطريقة تقريباً التى ابتدأت بها الآية السابقة . جاء هنا « وهو الذى » وجاء فى السابقة « الله الذى » وما قيل هنالك يقال هنا . فالذى يستحق العبادة وحده لاشريك له هو الله تعالى المتفرد بالخلق والأمر . وأولى أفكار الآية تتعلق بمد الأرض . ونستطيع أن نفهم من آيات سورة فصلت أن الأرض خلقت أول الأمر دون دحو ودون تهيئة لأن يسكنها الإنسان ، وأنها هيئت بعد ذلك ، بمائها ويابسها ، لأن يسكنها الإنسان

وقد ظهر فى الأرض ، يابسها بخاصة ، معلمان بارزان ، وليس معلماً واحداً فقط ، لأن المعلم الواحد لا غناء فيه ، ولا تتحقق معه وحده إمكانية سكن الإنسان مرتاحا . أما هذان المعلمان البارزان فهما كون الأرض مهاداً ، وكون الجبال أوتاداً . إن الأرض ، كما هو ثابت علمياً ، كروية ، وإن جزءها الصغير اليابس ، يشتمل على الأرض المنبسطة ، وعلى الجبال . وحينما تشير الآية الكريمة إلى هذين المعلمين البارزين « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى » فالمراد أن مصلحة الإنسان اقتضت أن تكون تلك هى صفة الأرض . إنها لو كانت كلها أرضاً منبسطة ، لمادت تحت قدم الإنسان واضطربت ، وليس فى ذلك مصلحة الإنسان قط . فاحتاجت الأرض للأوتاد التى تمسك بها كما تمسك الأوتاد بالأخبية التى يسكنها العرب آنذاك غالبا ، فكانت الجبال الرواسى[1]، التى تنزل من الأرض منزلة

---

(١) تفسير الطبرى : ١٣-٦٣ ، الرواسى جمع راسية وهى الثابتة .

الأوتاد من الأخبية . فكما أن الخباء لا ينهض دون أوتاده ، فكذلك الأرض لا تنهض دون أوتادها وهى الجبال .

وبما أن الأرض واسعة بطبعها ، فإن انحدارها لكرويتها ذاب فى اتساعها ، فصح فى العين والرأى معاً ، أن يعبر عن الأرض المنبسطة المقدرة الانحدار المضبوطته ، بأنها أرض ممدودة أو مدحوة . وتبدو قيمة انحدار الأرض المقدر المضبوط ، حينما نتأمل الأنهار ، التى أشارت إليها الآية الكريمة ، وهى تنحدر ، ليس فى الجبال فقط ، وإنما فى الأرض البطيئة الانحدار . قال تعالى: « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا » . إن الأرض لو كانت عنيفة الانحدار لما كانت ثمة فائدة من الأنهار ، بل لما وجدت الأنهار ، لأن انحدار الأرض العنيف ، كما هو الحال بشأن الشلالات ، يجعل المياه تتجه إلى البحار والمحيطات ، دفعة واحدة . وإن الأرض لو كانت مستوية لتحير المـاء وركد فأسن ، وفى ذلك هلاك الحرث والنسل . إن هذا الانحدار المقدر المضبوط فى حق الأرض ، جعل المـاء العذب بخاصة ، وهو الذى عنيت به هذه الآية الكريمة ، يسير سيراً معقولا ، يتيح للإنسان أن يتخذه ركوباً ، وأن يستخرج منه لحماً طريا ، إلى أن يلتقى المـاء الفرات المتحرك ، بالمـاء الملح المتحير ، وفى هذا اللقاء يتحقق للناس كل خير وجمال . وحينما تشير الآية الكريمة إلى الأنهار ذات المياه العذبة ، فإنها تشير ضمنا إلى المـاء الملح ، الذى يعتبر مصدر هذا المـاء العذب ، وإلى التفاعلات الأرضية والسماوية ، فى سبيل إتمام رحلة الماء الدائرية ، من كونه ماءفبخاراً فسحاباً فماء تارة أخرى ، فأنهارا . ويرتبط بالأنهار الجداول والبحيرات والعيون والآبار .

ولمـا كان الحديث عن أهم معالم الأرض ، ومن أهم معالمها هذه الأنهار ، ولمـا كان هذا المـاء إنما وجد من أجل الإنسان أساساً ، ولمـا كان أبرز آثار هذه الأنهار فى الأرض ، تلك النباتات والزروع ، التى تحول الأرض بساطاً أخضر ، فإن الآية الكريمة تحدثت عن نتيجة الأنهار

الواضحة فى الأرض ، من زاوية هدفها الأبعد وهو الإنسان الذى يستفيد هو من الثمرات ، والذى ينتفع بدنه منها . ويدخل فى ذلك ضمنا ، ما يسبق الثمار ، التى تمثل آخر المراحل التى تمر بها النبتة ، من استخراج للشطء ، فاستغلاظ ، فاستواء على الساق ، فالإزهار ، فالإثمار . كما يدخل فى ذلك ضمناً المراعى التى جعلت متاعاً للأنعام . ويدخل فى ذلك ضمناً الثمرات للجنات المعروشات وغير المعروشات . المعروشات كالأعناب وغير المعروشات سواها . وهذه بدورها تنقسم إلى قسمين رئيسيين ، قسم يميل إلى الاعتدال طولا كالزروع ، وقسم يميل إلى الطول كالنخيل . وسوف نتبين أن الآية الكريمة التالية قد نصت على هذه الأنواع فى قوله تعالى : « **وجنات من أعناب وزرع ونخيل** » .

ونود أن نقف برهة عند القول : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » إن الآية الكريمة تنص على أنه عز وجل قد جعل كل نوع من أنواع الثمار زوجين اثنين . فهل المراد أنهما صنفان ، كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين(١) أو أنهما نوعان ، هما الذكر والأنثى كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، ومنهم الفراء الذى قال بذلك قديماً(٢) .

أما نحن فنميل إلى كون الزوجين الأثنين بمعنى النوعين ، الذكر والأنثى ، فهذا هو الذى نفهم من القول فى الآية الكريمة « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » وهذا الذى نفهم من القول فى سورة لقمان(٣) : « **خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم** » ومن القول فى سورة يس(٤) : « **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** »

---

(١) انظر مثلا ابن كثير ، ٢ — ٥٠ والطبرى ١٣ — ٦٣ .
(٢) البحر المحيط : ٥ — ٣٦٢ .
(٣) آية : ١٠ .
(٤) آية : ٣٦ .

فالأزواج ، بمعنى الذكر والأنثى من نصيب ما تنبت الأرض ومن نصيب الأناسى ، ومن نصيب ما لا علم لنا به من خلق الله تعالى . وفيما يتصل بالنبات أو الثمار ، التى تشير إليها آية سورة الرعد ، تبين للعلماء أن النبات يتكون من ذكر وأنثى ، كما تبين أن النبات الذى لا يبدو فيه الاستقلال واضحاً والتميز بينا ، توجد فى العنصر الموجود خصائص النوعين ، الذكر والأنثى . ومن الجائز أن يكون الزوجان الاثنان قاعدة للكون كله . بما فى ذلك الجماد ، ويستوى فى ذلك أكبر الأجرام وأصغرها . ومن أكبر الأجرام تلك المجرات التى تتكون من ملايين الأنجم . فما أكثر الثنائيات النجمية التى تتبع فيها الواحدة الأخرى . ومن أصغر الأجرام الذرة ، التى تبين أنها تتكون من سالب وموجب ، من نواة ، بمثابة الذكر ، وشموس ، بمثابة الأنثى ، تدور حول النواة أو المحور وتشد إليه « **وكان الله على كل شىء مقتدرا** »(١) .

وإذا كنا قد قلنا إن الآية السابقة التى تتحدث عن السماء ، للأرض فيها نصيب محدود ، وإن هذه الآية الكريمة التى تتحدث عن الأرض ، للسماء فيها نصيب محدود ، فإن أوضح ما يبدو هذا الحظ فى الليل والنهار اللذين أشارت إليهما الآية الكريمة مباشرة . باعتبارهما معلماً بارزاً من معالم الأرض ، ونعمة كبيرة على الإنسان . قال تعالى : « **ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار** » .

وإن أول ما نود لفت الانتباه إليه هو أن الليل والنهار ، من نصيب كل من السماء والأرض ، ويمكن أن يعبر عن النهار بالشمس ، ويمكن أن يعبر عن الليل بالقمر — أو بالنجوم — ولما كان الشمس والقمر جزءاً من السماء . فإن الإشارة إليهما جاءت فى الآية الكريمة السابقة التى تتحدث عن السماء . قال تعالى : « **وسخر الشمس والقمر** » ولما أريد التعبير عما يبدو على الأرض مما يرتبط بغياب الشمس ، وأريد التعبير عما يبدو على الأرض لبزوغها ،

---

(١) الكهف : ٤٥ .

كان من الطبيعى أن يتجه الحديث عن متعلقات هذه الشمس الواحدة أثناء الأفول والبزوغ ، فكان ذكر الليل والنهار .

وإن الإشارة إلى الليل تتقدم الإشارة إلى النهار ، كعادة القرآن الكريم دائماً . لأن الليل هو الأصل ، ولأن النهار طارىء عليه . ومعنى « يغشى الليل النهار » أن رب العزة جعل الليل يغطى النهار بظلمته ، حتى إذا انحسر الليل عاد النهار إلى الظهور . لقد أظهر السياق الليل فاعلا للتغشية وليس النهار ، لأن صدور الإخفاء والتغطية ألصق بالليل ، ولأن تلقيهما أوضح بشأن النهار . عن قتادة ، قوله : « يغشى الليل النهار ، أى يلبس الليل النهار »(١) . قال تعالى « **والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى** »(٢) .

وإن ذكر الزوجين بشأن النبات جعل التعبير عن تغطية الليل النهار بالتغشية ، معمقاً للتقابل فى الصفات ليذكرنا بقوله تعالى فى سورة الأعراف(٣) بشأن الذكر والأنثى : « **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين** » .

وتختم الآية الكريمة بالحث عن التفكر « **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » لأن قضاياها أو آياتها العديدة ، تحتاج إلى إنعام نظر وإدامة تأمل ولطف تفكر . بينما ختمت الآية التالية بالقول « **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** » لأنها تتحدث عن أمور يبصرها كل ذى عينين لوضوحها وقرب تناولها وسهولة إدراكها .

وننتهى الآن إلى الآية الكريمة التالية التى تتحدث عن بعض الخطوط الأرضية الأكثر دقة بعد الحديث عن الخطوط العريضة فى الآية السابقة .

---

(١) طبرى : ٢٣ - ٦٣ .

(٢) الليل : ١ ، ٢ .

(٣) آية : ١٨٩ .

قال تعالى: « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

إن هذه الآية الكريمة تشير إلى عدة أمور :

١ — إلى قطع الأرض المتجاورات المتلاصقات ولكنها المختلفات من حيث الخصوبة والسهولة واللون وما إلى ذلك . وإذا كان الاختلاف فى الصفات ملاحظاً بشأن القطع المتجاورات ، فمن باب أولى القطع المتباعدات . وقد سكت السياق عنها لأنها مفهومه ضمنا ، ولأن العبرة تكمن فى الاختلاف مع القرب . هذا إلى إمكان إدراك الناظر للفروق ببساطة وبنظرة واحدة فى المتباعدات والمتقاربات .

٢ — إلى جنات الأعناب المعروشات والزروع غير المعروشات والنخيل . ومعروف أن الأعناب المعروشة تحتاج إلى ما يشبه العريش الذى يساعدها على النهوض والتسلق . أما الزروع فإنها تقوم على سوقها . ويلاحظ أن الزروع تميل إلى الارتفاع المحدود . أما النخيل فإنه من قبيل الأشجار المائلة إلى الطول المفرط أحيانا .

٣ — إذا كانت القطع المتجاورات اختلفت أنواعها ، وإذا كان ما تنبت الأرض اختلفت أنواعه ، فإن النخيل تختلف أشكاله . فمنه الصنوان ، بأن تجتمع نخلتان أو أكثر فى أصل واحد ، ومنه غير الصنوان ، بأن تستقل كل نخلة بأصلها .

٤ — إذا كانت الأرض قابلة لأن تنبت مختلف الثمار ، فإن هذه الثمار المختلفة فى الأشكال والألوان والروائح والطعوم ، والتى يفاضل لدى الطاعمين بعضها على بعض فى الأكل ، تسقى كلها بماء عذب واحد . فلدينا تقابل فى الصفات بين التعدد فى أشكال الزروع وألوانها وروائحها وطعومها وبين الإفراد فى كونها تسقى بماء واحد .

٥ ــ حيث إن هذه الأمور يبصرها كل ذى عينين ، لوضوحها ، وقرب تناولها ، وسهولة إدراكها ، ختمت الآية الكريمة بالقول : « **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** » . بمعنى أن العقل الصحيح يستطيع أن يعمل عمله وينتهى إلى نتائجه الصحيحة .

وبعد هذه النظرة السريعة الأولى ، نحن بحاجة إلى نظرة أخرى أقل سرعة وفق الأمور التى بينا .

فمع هذه الجزئية ابتداء . قال تعالى: «**وفى الأرض قطع متجاورات**» هذه الجزئية تشير إلى قطع الأرض المتجاورات المتلاصقات . ومع ذلك ، هى بقدرة الله تعالى مختلفة ، من خصبة وسبخة(١) كثيرة الريع وقليلته . وفى الكلام حذف . المعنى وفى الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات . كما قال : سرابيل تقيكم الحر(٢) والمعنى : وتقيكم البرد ثم حذف لعلم السامع(٣). وهو ما يسمى « الاكتفاء » عند علماء البديع . « ويدخل فى هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض . فهذه تربة حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه مرملة وهذه سميكه ، وهذه رقيقة والكل متجاورات نصفها وهذه نصفها الآخر . فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه »(٤) .

أشارت الآية الكريمة بعد ذلك إلى جنات الأعناب وإلى الزروع والنخيل . قال تعالى : « **وجنات من أعناب وزرع ونخيل** » ونبادر إلى موضع آخر فى القرآن الكريم ، لنتبين أهم العناصر التى تتكون منها الجنات . وهذا الموضع هو الآيتان الكريمتان من سورة الكهف قال تعالى : « **واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما**

---

( ١ ) قاموس « سبخ » : « والسبخة محركة ومسكنة ارض ذات نز وملح وسباخ » .
( ٢ ) النحل : ٨١ .
( ٣ ) تفسير القرطبى : ٢٥١٠ .
( ٤ ) ابن كثير : ٢ــ٥٠٠ .

زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالها نهراً »(١) . إننا بصدد جنتين من أعناب أحيطتا بسياج من نخيل ، وفصل بينهما بحجاز من زرع . إن الأعناب والنخيل والزروع ، آتى كل أكله ولم يظلم منه شيئاً » لتوافر كل العناصر الضرورية لذلك بما فيها ماء النهر الذى فجره الله تعالى خلال الجنتين تفجيراً . ومن هنا يتبين أن الأعناب أو الكروم أهم العناصر التى تتكون منها الجنات . ويتبعها فى ذلك الزروع والنخل والشجر . جاء فى القاموس(٢) : « والجنة الحديقة ذات النخل والشجر ج ككتاب » أما لماذا كانت الأعناب أهم عناصر الجنان ، فلقدرتها على أن تجن أرض الحديقة أى أن تغطيها وتسترها ، يلى ذلك الزروع فالأشجار والنخيل ، إذ الملاحظ أن الجامع المعنوى لمشتقات الأصل اللغوى « جنن » هو الستر والإخفاء . يقال(٣) : « وقد جنت الأرض بالضم وتجننت جنونا ، ونخلة مجنونة طويلة » . ويقال(٣): « أرض متجننة ، كثر عشبها حتى ذهب كل مذهب » .

مما سبق يتبين أن النبات الأكثر قدرة على ستر الأرض وتغطيتها ، هو الأكثر ارتباطاً بلفظ الجنة . ولقدرة الأعناب الفائقة على ذلك ، ارتبطت بالجنات قبل سواها . وقد دل على ذلك الارتباط الإشارة إلى الأعناب بشأن الجنتين فى آية سورة الكهف « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب » . ويلحق بذلك الزروع فالاشجار . ومن أجل الشكل المتميز والقدرة على تغطية الأرض ، جعلت الآية الكريمة الزروع بين جنتى الأعناب ، دليلا على كوننا بصدد جنتين اثنتين لا جنة واحدة . ومن أجل الشكل المتميز والقدرة المتأخرة للنخيل على تغطية الأرض ، خاصة وأنه ينبغى أن يكون بين النخلة والأخرى فراغ ضرورى لإتاحة

---

(١) آية : ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) « جنن » .

(٣) القاموس « جنن » .

الفرصة للنخلة أن تتنفس ، ولتميزه وراء ذلك بطوله المفرط ، جعلته الآية الكريمة بمثابة السياج للجنتين .

وهكذا يتبين أن ترتيب هذه العناصر النباتية فى الجنات هو على النحو التالى : الأعناب فالزروع فالنخيل .

إن هذه الجولة مع الجنات ومع أهم عناصرها ، مفيدة بشأن آية سورة الرعد : التى تشير إلى ذات العناصر التى أشارت إليها آية سورة الكهف . قال تعالى : « **وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل. إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** » . وفى ضوء اعتبار الأعناب العنصر الرئيسى للجنات ، واعتبار الزروع والنخيل جزءًا لا يتجزأ من الجنات ، كانت ثمة قراءتان أشار إليهما على سبيل المثال الطبرى فى تفسيره(١) يقول : « واختلفت القراء فى قراءة قوله : وزرع ونخيل . فقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة والكوفة : وزرع ونخيل ، بالخفض عطفاً بذلك على الأعناب ، بمعنى : وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ومن زرع ونخيل . وقرأ ذلك بعض قراء أهل البصرة : وزرع ونخيل ، بالرفع عطفاً بذلك على الجنات ، بمعنى : وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ، وفيها أيضا زرع ونخيل . والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إنهما قراءتان متقاربتان المعنى . وقرأ بكل واحدة منهما قراء مشهورون . فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب . وذلك أن الزرع والنخل إذا كانا فى البساتين فهما فى الأرض . وإذا كانا فى الأرض فالأرض التى هما فيها جنة . فسواء وصفا بأنهما فى بستان أو فى أرض » .

ومن الواضح أن العناصر التى تتألف منها الجنات فى سورة الكهف وسورة الرعد واحدة ، وأن هذه العناصر منتزعة من البيئات الزراعية فى جزيرة العرب . ومن الجائز أن تجتمع فى بيئة واحدة كل هذه العناصر

---

(١) ١٣-٦٥ .

الثلاثة الرئيسية ، كبيئة المدينة المنورة . ومن الجائز أن يجتمع عنصران فقط ، أعنى بأن ينقص النخيل ، كما هو الحال بشأن بيئة الطائف الباردة ، لأن النخيل يحتاج إلى البيئة الحارة . ومن الواضح أيضاً أن الأسلوب التقريرى فى آية الرعد ، أتاح للعناصر الثلاثة أن ترتب وفق غزارة ورقها وقربها من الأرض . فالأعناب أكثر قدرة على تغطية الأرض ، وتحتاج إلى العريش الذى يرفعها من الأرض ويسندها . والزروع تليها فى الخضرة وفى الارتفاع والنخيل باسق بطبعه وأقل الثلاثة خضرة . يقول الزمخشرى فى الكشاف(١): « قطع متجاورات : بقاع مختلفة . مع كونها متجاورة متلاصقة طيبة إلى سبخة . وكريمة إلى زهيدة . وصلبة إلى رخوة . وصالحة للزرع لا للشجر . إلى أخرى على عكسها ، مع انتظامها جميعاً فى جنس الأرضية . وذلك دليل على قادر مريد ، موقع لأفعاله على وجه دون وجه . وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة فى هذه القطع ، مختلفة الأجناس والأنواع . وهى تسقى بماء واحد ، وتراها متغايرة الثمر ، فى الأشكال والألوان والطعوم والروائح متفاضلة فيها » .

والصنوان جمع صنو ، وهى النخلة لها رأسان وأصلهما واحد(٢) . وقرأ الجمهور صنوان ، بكسر الصاد فيهما(٣) وقرىء بالضم . والكسر لغة أهل الحجاز . والضم لغة بنى تميم وقيس(٤) وجمعه فى لغة الحجاز صنوان بكسر الصاد ، كقنو وقنوان . وبضمها فى لغة تميم وقيس(٥) والصنو المثل ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : « عم الرجل صنو أبيه » . ولا فرق فيها بين التثنية والجمع ، ولا بالإعراب ، فتعرب نون الجمع وتكسر نون

---

(١) ٢-١٥٨ .

(٢) الكشاف : ٢-١٥٩ .

(٣) البحر المحيط : ٥-٣٦٣ .

(٤) الكشاف : ٢-١٥٩ .

(٥) البحر المحيط : ٥-٣٥٧ .

التثنية(١) وقد ضرب ابن كثير(٢) الأمثلة على الصنوان ، بمعنى الأصول المجتمعة فى منبت واحد ، بالرمان والتين إضافة إلى بعض النخيل . وعن مجاهد ، صنوان ، قال : فى أصل واحد ثلاث نخلات كمثل ثلاثة بنى أم وأب ، يتفاضلون فى العمل ، كما يتفاضل ثمر هذه النخلات الثلاث فى أصل واحد(٣) إن الذى خالف بينه على هذا النحو الذى خالف بينه ، هو المخالف بين خلقه فيما قسم لهم من هداية وضلال وتوفيق وخذلان . فوفق هذا وخذل هذا وهدى ذا وأضل ذا . ولو شاء لسوى بين جميعهم كما لو شاء سوى بين جميع أكل ثمار الجنة التى تشرب شرباً واحداً وتسقى سقياً . وهى متفاضلة فى الأكل(٤) .

والأكل بضم الكاف وسكونها(٥) بمعنى المأكول أو الثمر(٦)وخص التفضيل فى الأكل ، وإن كانت متفاضلة فى غيره ، لأنه غالب وجوه الانتفاع من الثمرات . ألا ترى إلى تقاربها فى الأشكال والألوان والروائح والمنافع وما يجرى مجرى ذلك(٧) .

ولو أننا ألقينا نظرة على آيات القسم من زاوية الترابط بين صدر كل آية وعجزها ، لتبينا أن ثمة تلاحماً بين الصدر والعجز ، وأن تنوع العجز تبع للصدر الذى يأخذ فى التنوع الخاضع لنظام رائع من التدرج المنطقى .

إن أولى آيات القسم ، إذا كانت تتحدث عن السماوات وما يتعلق بها ، مما يعتبر أقرب إلى الغيبيات ، فإن العجز يتعلق بيوم القيامة وهو من الغيبيات ، لعل الذين يوجه إليهم الخطاب يوقنون به ويعدون العدة له .

---

( ١ ) تفسير القرطبى : ٣٥١١ . وانظر هنا تفسير الطبرى ١٣-٦٤ .
( ٢ ) تفسير ابن كثير : ٢-٥٠٠ .
( ٣ ) تفسير الطبرى : ١٣-٦٧ وانظر القرطبى ٣٥١٢ وصحيح البخارى ٦-٩٨ .
( ٤ ) تفسير الطبرى : ١٣-٦٩ .
( ٥ ) الكشاف : ٢-١٥٩ .
( ٦ ) انظر البحر المحيط : ٥-٣٦٣ . وتفسير القرطبى : ٣٥١٢ .
( ٧ ) البحر المحيط : ٥-٣٦٣ .

ويكون ذلك بطبيعة الحال ، عن طريق تصديق كل من الرسول الكريم والقرآن الحكيم . وقد نبهت إلى ذلك أولى آيات السورة الكريمة . ولا ننسى أن ثمة تحولا من السماوات أو الفضاء المنظور ، إلى الغيب المجهول بشأن استواء الذات العلية على العرش .

وإذا كانت الآية الكريمة الثانية ، قد تحولت إلى ما يقابل السماء وما علا ، إلى الأرض وما سفل ، فإنها قد عرضت إلى مجموعة من الكليات ، تحمل الإنسان المنصف ، وقد من الله تعالى عليه بنعمة العقل على أن يتفكر ويتدبر . وهذه الكليات التى تحتاج إلى تفكر وتدبر ، هى الأرض الممدودة والجبال الراسية والأنهار الجارية والثمرات التى تتكون كل من ذكر وأنثى ، والليل والنهار . إن الأرض الممدودة بحاجة إلى أن يتفكر فيها . فلولا أن الأرض ممدودة لما كانت نافعة للإنسان . ولولا الجبال لمادت الأرض من تحت أقدام الإنسان . وما العمل لو لم يكن فى الأرض ماء عذب أفادته كلمة الأنهار . وكيف يستمر بقاء الثمار لولا أن النبات يتكون من ذكر وأنثى ، أو ما فى حكم الذكر والأنثى . وكيف يمكن تنظيم أوقات الإنسان ، لو كان الليل سرمدا ، أو لو كان النهار سرمداً ؟ إن كلا من هذه الأمور ، بحاجة إلى عقل متوهج الذكاء يتفكر ويتدبر . لذا ختمت الآية الكريمة بالقول : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

ولما كان عز وجل ، قد سخر السماوات والأرض وما فيهن من أجل الإنسان ، ولما كانت الأرض هى موطن الإنسان ، لذا كان هذا الإنسان الذى يحس بقيمة المكان قبل سواه ، لا زال بحاجة إلى أن ينبه إلى نعم هذا المكان التى لا تحصى ، كى يعقلها ويقوم بما يجب عليه تجاهها ، لذا كانت ثمة نظرة أخرى إلى الأرض مسعفة لهذا العقل على أن يعمل ، ومن ثم كانت النظرة من زاوية أخرى أكثر وضوحاً وأشد تخصيصاً . إن هذه النظرة تغطى جزءاً من الأرض لا تخطئه عين إنسان أبداً . ومن منا الذى من الله تعالى عليه بنعمة البصر ، ولم ير أنواعاً مختلفة من الأرض ، منها الخصب ومنها غير الخصب . ومن منا الذى لم ير فى الأرض الخصبة المزروعة ،

الجنات المعروشات والجنات غير المعروشات، والتى رمزلها فى الآية الكريمة بالأعناب والزرع والنخيل ؟ . ومن منا الذى يجهل أن هذه الجنات ذوات الثمار المختلفة طعماً ولوناً ورائحة وشكلا ، إنما تسقى كلها بماء واحد ؟ إن هذه الحقائق قريبة التناول ، ولا يجهلها شخص واحد . ولكن ، هذا هو المهم ، كم عدد أولئك الذين انتهوا من هذا الشيء المعروف المألوف ، إلى ما ينبغى أن يدل عليه ويئول إليه من عبادة هذا الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد ؟ إن فى النفس بشأن هذا السؤال الشيء الكثير . فما أقل الذين ربطوا بين الموجودات وبين موجدها وما ينبغى أن يترتب على هذا الربط وهذه المعرفة . لذا فإن عرض الآية الكريمة لهذه الحقائق المعروفة يعيدها جديدة ، إذ ينتقل الإنسان من موقف الاعتياد والألفة ، إلى موقف المستنير العقل والوجدان . ولا يلبث العقل والعاطفة ، أن يعملا فى الإنسان عملهما ، فإذا هو قد ولد بعقله وعاطفته من جديد . فبعد أن كان ميت الإحساس بليد الوجدان ، إذا هو كله إحساس وتفاعل ، بسبب يقظة كل من العقل والوجدان . وإلى ذلك العقل الذى ينبغى أن تكون تلك صفته ، أشار عجز الآية الكريمة الثالثة « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ويلاحظ أن لفظة الآيات تأتى بصيغة الجمع .

وهكذا نتبين أننا بصدد مواقف ثلاثة للإنسان إزاء جوانب ثلاثة مهمة من جوانب الوجود . الأول إيمان بالبعث والنشور والحساب فالثواب أو العقاب . وقد جاء التنبيه إلى هذا الموقف ، موافقاً للسماوات وما ارتبط بها ، مما هو فى حكم الغيبيات . وقد أشارت إلى هذا الموقف الآية الأولى . والثانى حث على التفكر فى مجموعة من الكليات الأرضية . والثالث حث على استعمال العقل فى مجموعة من التفاصيل الأرضية .

إن المؤمن يفعل كل ذلك ، وإن وسيلته الكبرى المسعفة له على الوصول إلى هذه الغاية الحميدة من أقصر سبيل ، هو القرآن الكريم . وقد أشارت الآية الكريمة الأولى من السورة إلى هذا الصنف من الناس الذى يؤمن بأن القرآن

الكريم كلام رب العالمين ، كما أشارت إلى أكثر الناس الذين لا يؤمنون بذلك . إن الكافر إنما يفعل ذلك لأنه ميت الإحساس والوجدان ، معطل لنعمة العقل التى من الله تعالى عليه بها . لننظر إلى أهم صفات هذا الكافر فى القسم الثالث من السورة الكريمة فإلى . . .

☆ ☆ ☆

# القسم الثالث

إصرار الكافرين على إنكار البعث
وعقابهم في الأولى والآخرة
الآيات (٥-٧)

قال تعالى : « وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب . ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » .

لقد كان المطلوب من الإنسان فى القسم السابق ، ثلاثة أمور . أن يؤمن باليوم الآخر . وأن يتفكر فى السماوات والأرض . وأن ينتفع بنعمة العقل . وإن الآية الكريمة الأولى فى هذا القسم ، تشير إلى أن الكافر المنكر للبعث والذى لم يمتثل لأوامر الله تعالى . له كذلك ثلاثة أحوال . قال تعالى :

« وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

إن هؤلاء الكفار ، حينما عطلوا نعم الله تعالى ، وفى مقدمتها العقل ، كذبوا الرسول الكريم والقرآن الكريم ، وعاشوا فى هذه الحياة كالأنعام بل هم أضل . إنهم فى الحياة الدنيا كفروا بقدرة الله تعالى على إعادة الحياة إلى الخلائق يوم القيامة . « أولئك الذين كفروا بربهم » وإنهم يوم القيامة ستكون الأغلال فى أعناقهم ،وأيديهم ، والسلاسل فى أرجلهم يسحبون منها فى الحميم « وأولئك الأغلال فى أعناقهم » وإنهم سيمكثون فى الجحيم ما دامت السماوات والأرض « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . وبعد هذه النظرة الأولى نحن بحاجة إلى نظرة ثانية .

أمر كفار مكة كله عجب عاجب . هم أكثر الناس علماً بأن المصطفى صلى الله عليه وسلم أصدق الناس ، ولهذا نعتوه قبل البعثة بالأمين ، أما بعدها ، فقد اتهموه بما أظهرهم فى صورة المتناقضين مع أنفسهم ، المضطربين نفسياً وذهنياً . فهم لا يثبتون على صفة من الصفات السيئة التى ألصقوها به صلى الله عليه وسلم ، بقصد صرف الناس عن الدين الذى رضى الله تعالى لعباده . فهم — كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً — يجعلون مثله مرة مثل الكاذب وأخرى مثل الساحر وثالثة مثل الشاعر ورابعة مثل الكاهن وهكذا . . .

ومن الذين يتورطون فى هذه الترهات ، وبالتالى من هم الذين يذهبون إلى أن القرآن الكريم ضرب من الكذب أو السحر أو الشعر أو سجع الكهان . إنهم فرسان العرب قاطبة فى مجال البيان والفصاحة ، إنهم قبيلة قريش ، التى تعتبر خلال كل العصور الجماعة النموذجية بين العرب ، فى ميدان البلاغة ، والقدرة على إعطاء كل كلام قيمته الحقيقية . وحينما أيقنوا أن القرآن الكريم ، ليس ضرباً من الشعر أو سجع الكهان أو الكذب ، وكانوا حريصين على أن يصرفوا الناس عن الإصغاء إلى الرسول الكريم وهو يرتل القرآن الكريم ترتيلا . وحينما أرادوا أن يعللوا إقبال الناس على الإصغاء للقرآن الكريم ، كانوا حريصين على أن تكون التهمة موافقة لقدرة القرآن الكريم العجيبة ، على أن يتسلل إلى كل نفس ، ويستحوذ على كل عقل ، وينفذ إلى كل أذن . فاستقر الرأى على اتهام الرسول الكريم بأنه ساحر ، وبأن القرآن الكريم ضرب من السحر . لقد استقر رأى القوم أخيراً على هذه التهمة ، وهم أبعد الناس عن الاعتقاد بصحة ما يقولون ، ولكن الغاية تبرر كل وسيلة فى نظر القوم ، الذين تبينوا أن الإسلام خطر داهم يقضى على أمجادهم الزائفة ، واستمتاعهم غير ذى الحدود ، بهذه الحياة الدنيا التى يعتبرونها نهاية المطاف .

وحينما تنكبوا طريق الحق ، تلقفتهم شياطين الإنس والجن ، وانساقوا مع أنفسهم الأمارة بالسوء وأهوائهم ، فأقبلوا على نعيم الدنيا الزائل ، يعبون

منه عبا . وكيف لا يكون الأمر كذلك ، وهم القائلون : « **ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون** »(١) . والقائلون : «**إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين**»(٢). ومن هؤلاء الذين يرفضون عقيدة البعث بعد الموت أساسا ؟ إنهم الذين يعتقدون أن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض ومن فيهن . وإذا سئل القوم فى هذا الموقف العجيب ، بل أعجب المواقف بنص الآية الكريمة ، قالوا إنا لا نصدق أن ثمة قوة قادرة على إعادة الحياة إلى الأجسام ، بعد أن غدت ترابا . قال تعالى: « **وإن تعجب فعجب قولهم ، أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد** » . وأنظر إلى لفظة جديد ، ذات المعنى البراق المعمق لإنكار القوم . إذ أنها تستعمل أساساً بشأن الثوب الحديث الصنع مثلا . يقال : ثوب جديد ، أى كما جده الحائك أى قطعه(٣) ، ومن الذين ينكرون وجود القوة القادرة على إعادة الحياة ؟ إنهم أولئك الذين يعتقدون أن الله تعالى هو موجدها أساسا . ولم تورط القوم فى هذا التناقض ؟ أليسوا هم العارفين ، بأن إعادة العمل أهون من إيجاده من العدم ، نقول هذا بلغتنا العاجزة ، نحن البشر المقهورى الإرادة ، وإلا فالأعمال كلها سواء فى حق الفعال لما يريد ، والذى إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ؟ إن السبب فى هذا التناقض المقيت هو أن القوم لم ينتفعوا من نعمة التفكر ومن نعمة العقل اللتين أشارت إليهما الآيتان الكريمتان فى القسم الثانى ، وذلك فى القول : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وهكذا يتبين العلاقة المتينة بين الدعوة إلى التفكر ، واستعمال العقل فى القسم الثانى من السورة ، وبين موقف كفار مكة المنكر للبعث ، والذى أشار إليه هذا القسم . مع ملاحظة أن القسم الثانى نبه إلى هذا الموقف ، وهيأه

---

(١) الجاثية : ٢٤ .

(٢) الأنعام : ٢٩ .

(٣) القاموس « جدد » .

لانتظار الحديث فى هذا الموضوع ، موضوع البعث : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » وإن إنكاره يعتبر عجيبة العجائب بشأن كفار مكة ، الذين عطلوا نعمة العقل ، وتورطوا تبعاً لذلك فى تكذيب الرسول الكريم وإنكار القرآن الحكيم واعتبار الحياة الدنيا نهاية المطاف .

ولما كانت أعمال القوم الأخرى الصالحة ، قد جعلها الله تعالى هباء منثورا ، قال تعالى : « **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** »(١). فلم يبق لهم سوى الأعمال السيئة ، ويأتى على رأسها الإشراك بالله الذى لا يغفره الله تعالى أبداً . لذا كان مصيرهم يوم القيامة النار وبئس القرار . قال تعالى : « **أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** » .

والآية الكريمة تتحدث عن الطريقة التى سيق فيها الكافرون إلى النار وبئس القرار . إن الأغلال فى أعناق الكافرين ، وقد شدت إليها الأيدى شدا ، وفى ذلك من الهوان والعذاب ما فيه و « الأغلال جمع غل ( بالضم ) وهو طوق تشد به اليد إلى العنق . أى يغلون يوم القيامة »(٢) . وإذا كانت الأغلال من نصيب الأعناق والأيدى ، فإنه يرتبط بها ضمنا ، القيود والسلاسل ، التى هى من نصيب الأرجل . إن الاغلال فى الأيدى ، كى يساقوا إلى جهنم سوقاً عنيفا . وإن القيود والسلاسل فى الأرجل ، كى يسحبوا سحباً مهينا .

وبما أن القوم قد أشركوا مع الله تعالى سواه ، وهو الذنب الذى لا يغفره الله تعالى ، فإن مصير هؤلاء أن يخلدوا فى النار . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ونتحول بعد ذلك إلى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : « **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب** » .

---

( ١ ) الفرقان : ٢٣ .

( ٢ ) تفسير القرطبى : ٣٥١٣ .

كفار مكة بلغوا من الحمق والسفه كل مبلغ . فهم يكذبون الرسول الكريم ، والقرآن الحكيم ، وينكرون يوم القيامة . بل يبدو أنهم لا يريدون أن يقفوا عند حد . فمع أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، قد بلغ به الحزن لإعراضهم عنه كل مبلغ ، كان لهم موقف ، على الضد من ذلك تماماً . إنه الاستهزاء ! ولا يخفى أن الاستهزاء أو السخرية ، نوع من الحرب النفسية . وكما يحرص الخصوم على كسب المعركة عسكرياً أو سياسياً ، يحرصون على كسبها نفسياً أو دعائياً . وقد لجأ هؤلاء الكافرون ، إلى هذه الحرب النفسية حرب الاستهزاء ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، كان دائماً وأبداً مع رسوله الكريم . وإن نزول القرآن الكريم منجما معناه أن تثبيت فؤاد المصطفى صلى الله عليه وسلم متجدد . كلما نزل جبريل عليه السلام ، بشيء من القرآن عليه صلى الله عليه وسلم . وهذا التثبيت أحد أسلحة الدفاع القوية ، التي يتسلح بها الرسول الكريم بعون منه تعالى وتوفيق ، ضد أنواع الأسلحة التي يتسلح بها الكافرون ومنها الحرب النفسية . يضاف إلى ذلك أن رب العزة ، رأفة منه برسوله الحبيب ورحمة به ، قد كفاه شرور المستهزئين . وفي ذلك جاء قوله تعالى في سورة الحجر(١): « **إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون . ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** » .

ولاستهزاء كفار مكة أكثر من صورة . فهم أحياناً يطلبون مجموعة من الخوارق ، يعلمون علم اليقين أن بعضها لا يمكن بحال من الأحوال أن يتحقق ، كأن يطلبوا نزول الله تعالى ذي الجلال والإكرام ، ومعه الملائكة شهوداً بأن المصطفى صلى الله عليه وسلم رسول رب العالمين . ومن السور الكريمة ، التي جمعت بين كثير من هذه المقترحات سورة الإسراء وسورة الفرقان . جاء في سورة الإسراء مثلا قوله تعالى : « **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب**

---

(١) آيات : ٩٥ - ٩٩ .

لتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا »(١) . وجاء فى سورة الفرقان قوله تعالى : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا(٢) » .

وعلى الرغم من أن كفار مكة هم أرباب البيان والفصاحة ، وأن القرآن الكريم ، معجزة الرسول العظيم ، من جنس ما نبغوا فيه ، وبالتالى ينبغى أن يكونوا أول الناس اعترافاً بإعجاز القرآن الكريم ، فإن هؤلاء الكفار ، يصرون على طلب مجموعة أخرى من الخوارق المادية ، بعضها لا يصح فى العقل أن يتحقق ، وبعضها يصح أن يتحقق. وكل ما يصح فى العقل تحقيقه ، يقل فى مجال القدرة على التأثير وإقناع العقل عن القرآن الكريم . ويكفى أن يقال فى هذا الشأن : إن القرآن الكريم ، معجزة الإسلام الكبرى الخالدة ، باق إلى أن يرث عز وجل الأرض ومن عليها ، بينما الخوارق المادية ، محصورة بطبعها بثلاثة حدود من الزمان والمكان والجماعة التى تشاهدها . إن كفار مكة يدركون هذه الحقيقة ، ومع ذلك يصرون على طلب الخوارق ، من قبيل الجد أحياناً ، ومن قبيل الاستهزاء فى أكثر الأحايين . بدليل أن من طلباتهم ما يستحيل فى العقل تحقيقه ، ومع ذلك هم يطلبونه ، بل يلحون فى الطلب . وكأن رفض المصطفى صلى الله عليه وسلم طلبهم ، مما يتلذذون به وبترداده ، وكأنهم بذلك أظهروه صلى الله عليه وسلم فى مظهر غير القادر على تحقيق مقترحاتهم .

---

(١) آيات : ٩٠ - ٩٣ .

(٢) آيات : ٧ - ٩ .

بل إن حمق القوم وسفههم ، يتجاوز هذا المستوى إلى مستوى آخر وراءه ، حينما يصرون على طلب هذه الخوارق ، بعد أن أكد القرآن الكريم أنهم لن يؤمنوا ، حتى لو أجيبوا إلى ما يطلبون . فقد سبق إلى علم الله تعالى هذا الموقف منهم ، والدليل على ذلك أن كل المكذبين من الأمم السابقة قد أبيدوا عن بكرة أبيهم إثر إصرارهم على التكذيب بعد تحقيق طلباتهم من الخوارق فلم ينفعهم إيمانهم ، باستثناء قوم يونس عليه السلام . ومع أن كفار مكة ينبهون إلى أن سنة الله تعالى قد اقتضت أن يستأصل شأفة القوم الذين يصرون على التكذيب بعد تحقيق مقترحاتهم ، وأنهم سيصادفون المصير ذاته ، فإنهم يصرون على ترديد مقترحاتهم وتأبى رحمة الله تعالى أن تحقق مقترحات كفار مكة لأنه « قد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة »(١) . وإلى تنبيه كفار مكة إلى معجزة المعجزات ، إلى القرآن الكريم ، الذى يرضى كل عقل نير ، ويشبع كل نفس صافية ، أشار قوله تعالى فى سورة الحجر : « **وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين . إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** »(٢) . وإلى تنبيه كفار مكة ، إلى موقفهم المصر على التكذيب بعد تحقيق مقترحاتهم من المعجزات ، أشار قوله تعالى فى سورة الأنبياء : « **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون** »(٣) .

ولا يقف العجب عند حد ، حينما يصر كفار مكة على استهزائهم ، بعد أن أصروا على إساءة فهم ما يسمعون من القرآن الكريم ، ومن الرسول العظيم . وبدلا من أن يسألوا الله تعالى أن يهديهم سواء السبيل ، أو على أقل تقدير ، أن يكفوا عن الاستهزاء ، وأن ينصرفوا إلى جد الأمور ، يسألون

---

(١) تفسير القرطبى ، ٣٥١٣ . وهذا كلام قتادة .

(٢) آيات : ٦ – ٩ .

(٣) آية : ٥ ، ٦ .

الله تعالى ما لا يسأله عاقل بل أحمق مأفون . ويلاحظ أنهم يتجاوزون المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى سؤاله عز وجل أن يمطر عليهم حجارة من السماء أو أن يأتيهم بعذاب أليم . جاء فى سورة الأنفال التصريح بهذا النوع من الأسئلة وإلى رحمة الله تعالى بهم وبحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، الذى كان رحيما بقومه. قال تعالى(١): «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » . وقد أشارت سورة الأنعام المكية إلى طلب كفار مكة من الرسول الكريم إنزال العذاب العاجل بهم . قال تعالى(٢) : « قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به . ما عندى ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين . قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم . والله أعلم بالظالمين » .

وإلى مثل هذا الموقف أشارت سورة الرعد فى الآية الكريمة التى نحن بصددها . قال تعالى : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب» . وأول ما يستوقفنا بشأن الآية الكريمة جملة « ويستعجلونك » فكفار مكة فى استهزائهم ، لا يكتفون بتفضيل السيئة على الحسنة مثلا ، وفى ذلك من الحمق ما فيه ، حتى يقال ربما كان القوم مدفوعين بروح العناد والرغبة فى التحدى . لا ، إنهم يستحثون الرسول الكريم بأن يفعل بهم أى سوء مر بفكرهم السقيم وذهنهم الكليل ، من إمطارهم الحجارة من

---

(١) سورة الأنفال : ٣١ - ٣٥ .
(٢) آية : ٥٧ ، ٥٨ .

السماء مثلا أو أن يأتيهم عذاب أليم ، بدلا من أن يطلبوا منه عليه الصلاة والسلام بأن يدعو ربه بأن ينزل عليهم شآبيب رحمته . قال ابن عباس : السيئة العذاب والحسنة العافية(١) و « لما كانوا متوعدين بالعذاب إن أصروا على الكفر ، وكانوا مكذبين بما أنذروا به من العذاب ، سألوا واستعجلوا في الطلب أن يأتيهم العذاب وذلك على سبيل الاستهزاء »(٢) .

ونحن بحاجة دائماً إلى أن نقارن بين رحمة الرسول الكريم بهم ، حينما كان يدعو ربه عز وجل ألا يهلكهم ، علهم هم أو ذراريهم يسلمون ويعبدونه عز وجل وحده لا شريك له . وبين قسوة قلوبهم وحمقهم ، حينما يختارون أسوأ أنواع العذاب ويطلبون منه عليه الصلاة والسلام ، على طريقة الاستهزاء ، بأن ينزله بهم إن كان من الصادقين .

وينبغي أن يكون في ضمير المخاطب في « يستعجلونك » نوع من التسلية للرسول الكريم والتسرية عنه ، لأنه عليه الصلاة والسلام ، يحس في هذه الطريقة من التعبير أن ربه معه دائماً ، ولا تخفى عليه خافية مما يقول كفار مكة ويفعلون » وتتأكد التسلية والتسرية في القول الذي جاء في الآية الكريمة مرتين ، « وإن ربك » إذ المعروف أن لفظة الرب في القرآن الكريم ، تشعر المخاطب بالرعاية المستمرة والعناية الدائمة .

وإن هذه الزيادة « قبل الحسنة » وليس بدل الحسنة ، مثلا معمقة لسخف هؤلاء الكافرين ، الذين هم كالأنعام بل أضل سبيلا . لأن الأنعام تحرص بالفطرة على مصلحتها ، أما هؤلاء الكافرون ، فإنهم يحرصون على ما هو ضار بهم ومؤذ لهم عن علم وإصرار ، وإلا فمن ذا الذي يجهل أن إمطارهم بالحجارة من السماء أو إيتاءهم بعذاب أليم يزعج مروره بالبال كل إنسان ذي قدر ضئيل من الإحساس بإنسانيته . أما كفار مكة فإنهم

---

(١) البحر المحيط : ٥-٣٦٦ .

(٢) البحر المحيط : ٥-٣٦٦ .

يتجاوزون كل معروف ومألوف ، ويصرون على أن يثبتوا للإنسانية أنهم فى مستوى أقل المخلوقات إدراكاً . إنهم أعلم الناس بمصير المكذبين السابقين الذين دمرهم الله تعالى تدميراً ، ومع ذلك هم يطلبون كل هذه الأمور ، لا بل يؤثرونها ، لا بل يستحثونها . إن كفار مكة فى أثناء سفرهم يمرون بقرى قوم لوط عليه السلام . وقد جاء بشأن هؤلاء القوم المكذبين فى سورة الصافات(١) قوله تعالى : « وإن لوطاً لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون» وفى سورة الحجر(٢) جاء قوله تعالى : « فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمؤمنين . وإنها لبسبيل مقيم . إن فى ذلك لآية للمؤمنين » . وجاء بشأن أصحاب الحجر وآثارهم الباقية قوله تعالى فى سورة الحجر التى تحمل اسمهم(٣) « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين. وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين . فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » . والمعروف أن قرى قوم لوط عليه السلام ووادى الحجر الذى كان يسكنه ثمود قوم صالح عليه السلام ، فى طريق القرشيين إلى الشام فى رحلتهم صيفا ، وفى إمكانهم أن يروا آثارهم التى لم تندرس فيعتبروا .

وإلى هذه الآثار الدالة على الانتقام ، وإلى كون كفار مكة يعلمون ذلك ولا يجهلون ، أشارت الآية الكريمة التى نحن بصددها من سورة الرعد . قال تعالى : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات » « أى يستعجلونك بالسيئة مع علمهم بما حل بغيرهم من مكذبى الرسل فى الأمم السالفة . وهذا يدل على سخف عقولهم ، إذ يستعجلون بالعذاب والحالة هذه . فلو أنه لم يسبق تعذيب أمثالهم لكانوا

---

(١) آيات : ١٣٣ – ١٣٨ .

(٢) آيات : ٧٣ – ٦٦ .

(٣) آيات : ٧٩ – ٨٤ .

ربما يكون لهم عذر ، ولكنهم لا يعتبرون فيستهزئون »(١) ويقول ابن جرير الطبرى فى تفسيره(٢): « يقول تعالى ذكره : ويستعجلونك يا محمد مشركو قومك بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية فيقولون : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، وهم يعلمون ما حل بمن خلا قبلهم من الأمم التى عصت ربها ، وكذبت رسلها من عقوبات الله وعظيم بلائه . فمن بين أمة مسخت قردة ، وأخرى خنازير . ومن بين أمة أهلكت بالرجفة وأخرى بالخسف ، وذلك هو المثلات التى قال الله جل ثناؤه : وقد خلت من قبلهم المثلات . والمثلات ، العقوبات المنكلات . والواحدة منها مثلة ، بفتح الميم وضم الثاء ، ثم تجمع مثلات ، كما واحدة الصدقات صدقة ثم تجمع صدقات » .

وأطلق على العقوبة لفظ المثلة ، لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة(٣) أو لما بين العقاب والمعاقب من المماثلة ، كقوله تعالى : وجزاء سيئة سيئة مثلها(٤). ولغة أهل الحجاز مثلة بفتح الميم وسكون الثاء . ولغة تميم بضم الميم وسكون الثاء(٥). ويجمع بالألف والتاء(٦). يقول ابن كثير(٧) : « أى قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم » ويقول الزمخشرى(٨): « فما لهم لم يعتبروا بها فلم يستهزئوا » . عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحاب الحجر : لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين . فإن لم تكونوا باكين . فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم »(٩) .

---

(١) البحر المحيط : ٥-٣٦٦ .
(٢) ١٣-٧٠ . وانظر البحر ٥-٣٦٦ . والقرطبى ٣٥١٣ .
(٣) الكشاف : ٢-١٥٩ .
(٤) البحر المحيط : ٥-٣٥٨ .
(٥) البحر المحيط : ٥-٣٥٨ . وانظر القرطبى ٣٥١٣ ، ٣٥١٤ .
(٦) البحر المحيط : ٥-٣٥٧ .
(٧) تفسير ابن كثير : ٢-٥٠١ .
(٨) الكشاف : ٢-١٥٩ .
(٩) صحيح البخارى : ٦-١٠١ .